المشرق

الجامع الازهر

نبذة في تاريخه وتعليمه

للاب انكيس مالون اليسوعي

ان بين المباني الفخيمة التي يتقاطر السيّاح الى زيارتها في القاهرة اثرًا شهيرًا يخصّونهُ بالذكر في اسفار رحلهم ويطنبون في اوصافهِ وهو الجامع الازهر الذي طار صيتهُ في الممالك الاسلامية فعدَّ من ارفع ابنيتها مقامًا واخطرها شأنًا حتى تقصدهُ الطلبة فجاءوهُ ارسالًا من كل وادٍ راوب ليأخذوا العلوم عن فقهائهِ وادبائهِ. وكان لعلماء الازهر اليد الطولى في جميع معارف الدين الاسلاميّ يدرسها عليهم محبُّو العلوم على اختلاف اجناسهم وبلادهم فيستضيئون بنبراسهم ثمَّ يعودون الى اقطارهم فينشرون فيها ما تأثَّروهُ من المعارف ويرشدون اليها مواطنيهم

هذا وليس قصدنا من هذه النبذة الوجيزة ان نستوفي الكلام عن تاريخ هذا الجامع وما توالى عليهِ في كرّ الدهور من التغيير والتحسين على ايدي الخلفاء والسلاطين لان ذلك يقتضي بحثًا فسيح المجال لا تزفي حقَّهُ التواريخُ المسهبة فضلًا عن الصفحات الوجيزة في مجلة علميَّة ادبيَّة. فاننا نكتفي بذكر بنائهِ واهمّ ما مرَّ عليهِ من الحوادث في مرّ الايام وما هو عليهِ اليوم من حفلة الطلبة واتساع الدروس ليقف القراء على احوال ما وصفهُ بعض الكتبة « بالكلّية الجليلة التي طالما افتخر بها المشرق والمغرب »

١ في تاريخ الجامع الازهر

يرتقي عهد الجامع الازهر الى اوائل الدولة الفاطميَّة في مصر. وذلك ان الخليفة المعزّ لدين الله الفاطميّ كان يملك في اواسط القرن الثالث للهجرة على بلاد قيروان والمغرب

وكان ذا مدارك سامية وشدَّة بأس فحملهُ طمعهُ في توسيع نطاق ملكهِ الى ان يستولي على الديار المصريَّة وهي اذ ذاك مضطربة الاحوال متضعضعة الامور يسوسها الامير ابو الفوارس علي بن محمد الاخشيدي. فارسل المعزّ قائدَهُ جوهر بن عبد الله الكاتب الصقلّي في جيش عرمرم ليفتح الفسطاط (١. قال ابن دقاق (٢ في كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار (٥: ٣٥): « فدخل جوهر الى الفسطاط في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان وقيل ١٢ من سنة ٣٥٨ (٩٦٩ م) وصعد المنبر يوم الجمعة ودعا لمولاهُ المعزّ ووصلت البشائر الى المعزّ والمعزّ بافريقية في نصف رمضان من السنة المذكورة فاقام بها الى ان وصل مولاهُ في شهر شعبان سنة ٣٦١ وعمَّر مدينة القاهرة وسمّاها بالمنصوريَّة وابتدأ بالعمارة في سنة ٣٥٩. ثمَّ سُمّيت بالقاهرة عند قدوم سيدهِ الامام المعزّ لدين الله قيل لانَّ اساسها شُقّ عند طلوع كوكب رصدهُ احد السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو كوكب يُقال لهُ القاهر » (وهو المريخُ). وقال ابن اياس في تاريخ مصر (١: ٤٦) عن المعزّ ان بزمانهِ: « صارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة. وكان الخلفاء الفاطميَّة يحكمون من مصر الى الشام الى حلب الى الفرات الى مكة والمدينة الشريفة الى القدس والخليل »

امَّا بناء الجامع الازهر فقد أُنشئ في ذات السنة التي اختطَّ بها القائد جوهر مدينة القاهرة. قال المقريزي في كتاب الخطط والآثار (٢: ٢٧٣): « هذا الجامع اوَّل مسجد أُسّس بالقاهرة والذي انشأهُ القائد جوهر الكاتب الصِقلّي مولى الامام ابي تميم معدّ الخليفة امير المؤمنين المعزّ لدين الله لمَّا اختطَّ القاهرة وشرع في بناء هذا الجامع في يوم السبت لستّ بقين من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) وكمل بناؤهُ لتسع (٣ خلون من شهر رمضان سنة ٣٦١ (٩٧٢ م) وجُمّع فيهِ. وكُتب بدائر القبَّة التي في الرواق

---

١) الفسطاط هي مصر العتيقة دُعيت بذلك لانَّ عمرو بن العاص ضرب فيها فسطاطهُ اي خيمتهُ لمَّا قدم لفتح منف القديمة في خلافة عُمَر بن الخطَّاب

٢) هو ابراهيم بن محمد بن ايدمر الحلبي الشهير بابن دقاق مؤلف كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار وهو تاريخ كبير في عشرة اجزاء لم يبقَ منهُ الَّا جزءان يشتملان تاريخ مصر والفسطاط والاسكندريَّة امر بطبعهما صاحب السعادة يعقوب ارتين باشا وكيل نظارة المعارف العمومية المصريَّة

٣) وفي كتاب حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة للسيوطي (٢: ١٤٠): « لسبْع »

الاول وهي على بنية الخراب والمنبر ما نصهُ بعد البسملة: امر ببنائهِ عبد الله وليُّهُ ابو تميم معدّ الامام معزّ لدين الله امير المومنين صلوات الله عليهِ وعلى آبائهِ وابنائهِ الاكرمين على يد عبدهِ جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ٣٦٠ (٩٦٩ م)»

هذا وقيل انَّ المعزّ لدين الله سمّى الجامع المذكور بالازهر نسبةً الى فاطمة الزهراء التي كان الخليفة ينتسب اليها

ولمَّا بويع بالخلافة للعزيز بالله ابي منصور نزار ابن المعزّ سنة ٣٦٥ (٩٧٦م) جدَّد اشياء في بناء الازهر ثمَّ احبَّ ان يجعل عاصمة ملكهِ دارًا للعلوم والآداب على نحو ما كانت بغداد فارسل واحضر جماعة من الفقهاء من نواحي مصر والمغرب ومراكش وامر لهم سنة ٣٧٨ (٩٨٩م) بصلة ورزق وجعلهم أسرى معروفهِ. قال المقريزي في الخطط: «وامر لهم بشراء دار وبنائها فبُنيت بجانب الجامع الازهر فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع وتحلّقوا فيهِ بعد الصلاة الى ان تصلّى (كذا) العصر. وكان لهم ايضًا من مال الوزير (يريد وزير الخليفة العزيز ابا الفرج يعقوب بن كلس) حلّةٌ في كل سنة وكانت عدّتهم ٣٥ رجلًا وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات»

وهكذا تمَّ انشاء هذا الجامع الشهير مع المدرسة الازهريَّة اللاحقة بهِ. ولمَّا صارت الخلافة الى الحاكم بامر الله جدَّد الجامع الازهر واوقف عليهِ الاوقاف وحبس من الاملاك ما يبلغ ريعهُ ١٠٦٧ دينارًا وقد فصَّل ذلك العلامة المقريزي في كتاب الخطط (٢: ٢٧١) واستوفى فيهِ الكلام فلا حاجة الى تدوينهِ. امَّا المدرسة الجديدة فحفلت بالطلَّاب الواردين من اطراف الممالك الاسلامية لدرس الفقه وزخرت خزائنُها بالكتب المفيدة ثم تتابع الخلفاء بعد منشئها العزيز بالله فاعزُّوا العلم على مثالهِ واكرموا اهلهُ بيد انَّنا لا نعلم الَّا شيئًا قليلًا عن الدروس التي كان العلماء يدرّسونها في الجامع الازهر على عهد الدولة الفاطميَّة ولا نظنّ انَّها تجاوزت العلوم اللسانيَّة والفقهيَّة وبقي ذلك الى ايَّام الدولة الايوبيَّة

ولمَّا استبدَّ السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب بالسلطنة في اواسط القرن السادس للهجرة ابطل الخطبة في الجامع الازهر واقرَّها بالجامع الحاكمي لانهُ اوسع. وقيل انَّهُ اهمل الجامع الازهر بغضًا بالدولة الفاطميَّة. قال المؤرخ المدقق العلامة المقريزيّ في الخطط (٢: ٢٧٥) والشيخ جلال الدين السيوطي في حسن المحاضرة (٢: ١٤٠):

« وكان بصدر الجامع الازهر في محرابه منطقة فضّة كما كان في محراب جامع عمرو بن العاص بمصر فقلع ذلك صلاح الدين في ١١ ربيع الاول سنة ٥٦٩ لانهُ كان فيها انتهاء الخلفاء الفاطميين فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة ». وقال المذكوران: « ولم يزل الجامع الازهر معطّلاً من اقامة الجمعة فيهِ مائة عام الى ايام الملك الظاهر بيبرس ». وكذلك أبطلت المدرسة الازهريّة كما يؤخذ من كلام المقريزيّ وان لم يصرّح بهِ جليًّا. قال العلامة فان برڤم المستشرق الخبير بعاديّات مصر العربيّة: « وامر صلاح الدين بقطع التدريس في الجامع الازهر وشتّت شمل الطلبة والمعلّمين لانهُ كان على مذهب الشافعيّة وكان مذهبهم غير مذهبهِ فضلاً عن انّهُ كان يرى فيهم من التعلّق بالدولة الفاطميّة ما كان يريبهُ »

ولمّا ادال الله جلّ اسمهُ للمماليك وافضت السلطنة فيهم الى السلطان السادس الملك الظاهر ابي الفتوح بيبرس البندقداري أعاد الخطبة والجمعة في الجامع الازهر سنة ٦٦٥ (١٢٦٧م) وجدّد فيهِ التعليم. قال الامام تقي الدين المقريزي (٢ : ٢٧٥): « وتبرّع الامير عزّ الدين (ايدمر الحلّي) لهُ بجملة مستكثرة من المال الجزيل واطلق لهُ من السلطان جملةً من المال وشرع في عمارته فعمّر الواهي من اركانهِ وجدرانهِ وبيّضهُ واصلح سقوفهُ وبلّطهُ وفرشهُ وكساهُ حتى عاد حرمًا في وسط المدينة واستجدّ بهِ مقصورة حسنة واثّر فيهِ آثارًا صالحة »

ثمّ جاس بعد الظاهر بيبرس على منصّة الملك ابنهُ محمد ناصر الدين بركة خان وكان لهُ وزير عاقل حسن السجايا كثير الآداب وهو الامير بيلبك الخازندار. فعمل هذا مقصورةً كبيرةً ورتّب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعي ورتّب سبعة آخرين لقراءة القرآن واقام مدرّسًا ومحدّثًا ليُسمع الحديث والرقائق ووقف على كلّ ذلك الاوقاف الدارّة. فنهضت الهمم من ميتتها وازدحمت الطلّاب الى مناهل الادب ونمت في المحروسة دوحة العلم وارتفعت اغصانها وامتدّت افنانها واتت بالاثمار الطيبة ألا وهي ما صار اليهِ الشعب المصري في ذلك الزمن من التقدّم واسباب العمران

وفي السنة ٧٠٢ حدث في مصر زلزلة هائلة قوّضت ابنيةً عديدة منها الجامع الازهر فتولى عمارتهُ الامير سلار. ثم جدّد بناءهُ سنة ٧٦١ (١٣٦٠م) الامير الطواشي

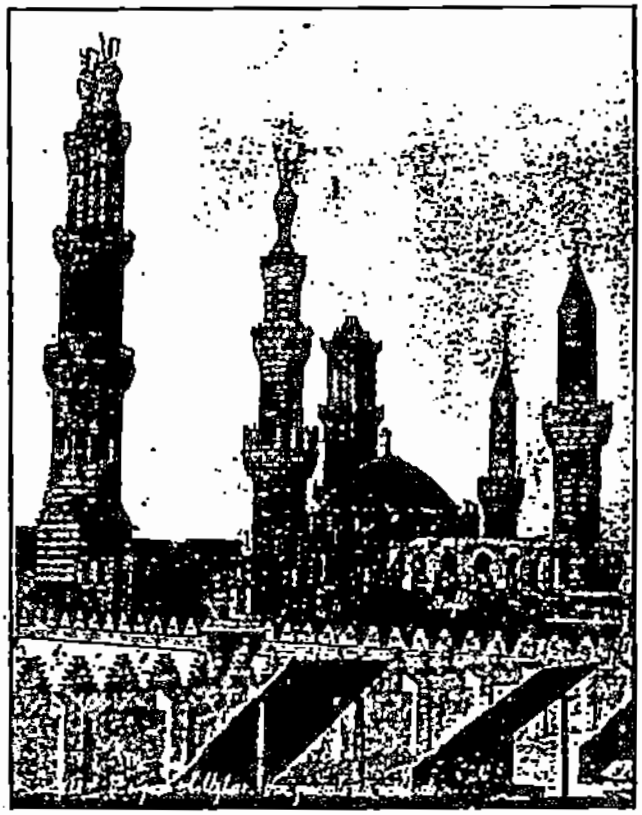

قبة الجامع الازهر ومآذنه

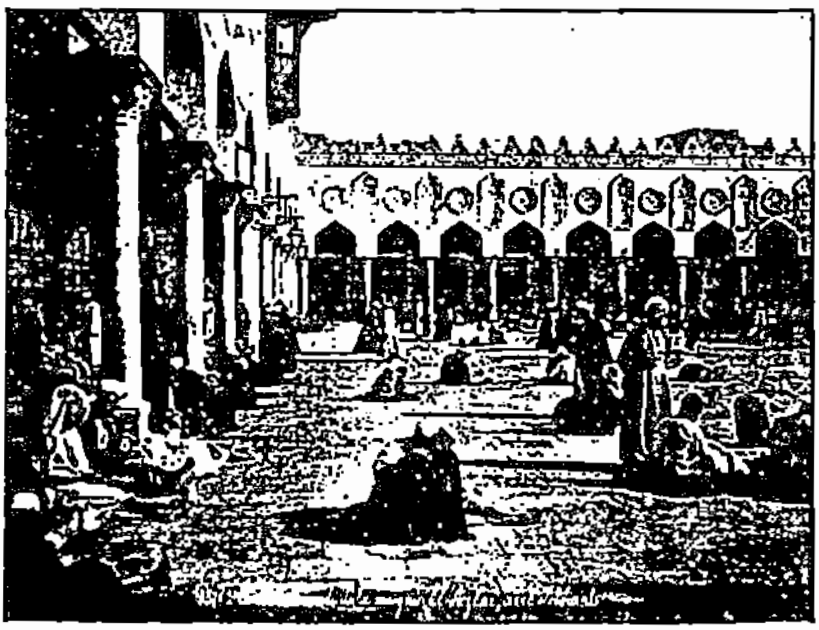

اروقة الجامع الازهر

سعد الدين بشير الجامدار الناصري وكان اثيرًا عند السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون خصيصًا به فاستأذنهُ بتجديد بناء هذا الجامع فاذن لهُ . فتزع منهُ ما كان يشوههُ وتتبع جدرانهُ وسقوفهُ بالاصلاح حتى عادت كأنها جديدة وجعل مكتبًا لاقراء ايتام المسلمين ورتب للفقراء المجاورين طعامًا يُطبخ كلّ يوم واقام مدرّسًا للفقه الحنفيّ في المحراب الكبير ووقف على كلّ ذلك اوقافًا جليلة (راجع المقريزي ٢ : ٢٧٦)

ثمّ تداولت الملوك بعد السلطان الملك الناصر صورة الجامع الازهر وهم يحسنون الى الجامع الازهر و يزيدون في رواتبهِ ويصلحون ما خرب منهُ وقد نُقشت اسماؤهم على صفائح لا تزال محفوظة الى اليوم في الجامع الازهر فلم يذهب بذكرهم الزمان والنسيان . منهم الملك الناصر فرج بن برقوق عمل صهريجًا في صحن الجامع الازهر وبنى لهُ منارة طويلة . قال المقريزي : « ولم يزل في هذا الجامع منذ بُني عدّة من الفقراء يلازمون الاقامة فيهِ وبانت عدّتهم في هذه الايام ٧٥٠ رجلًا ما بين عجم وزيالعة ومن اهل ريف مصر ومغاربة ولكل طائفة رواق يُعرف بهم فلا يزال الجامع عامرًا بتلاوة القرآن ودراستهِ وتلقينهِ والاشتغال بانواع العلوم من الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر . . . وصار ارباب الاموال يقصدون هذا الجامع بانواع البرّ من الذهب والفضة والفلوس اعانةً للمجاورين فيهِ على عبادة الله وكل قليل تُحمل اليهم انواع الاطعمة والخبز والحلاوات لاسيما في المواسم » . ومنهم ايضًا الملك الاشرف قيطباي والسلطان النوري من دولة المماليك الشراكسة

وممّن اهتمّ بهذا الجامع الشهير في القرن الماضي رجلُ مصر الكبير محمد علي الذي احيا المعارف والعلوم في القطر المصري . وتتبع آثارهُ بعدهُ سموّ الخديوي عبّاس حلمي باشا فامر ببناء رواق جديد في الازهر فتأنق المهندسون في زخرفتهِ وجمعوا فيهِ من النقوش البديعة والرسوم الجميلة والفنون الهندسيّة ما يأخذ بمجامع القلوب ويستوقف الانظار فعُرف هذا الرواق بالرواق العبّاسي

هذه خلاصة اخبار الجامع الازهر في غابر الايام . ودونك وصفهُ اجمالًا في عهدنا : انّ هذا الجامع عبارة عن بناء مستطيل الشكل واسع الارجاء تنتهي زواياهُ الاربع باربع مآذن شاهقة الطول . وفي وسط البناء صحن فسيح فيهِ ثلاثة صهاريج للوضوء

تحدق به من جهاته الاربع اروقة واسعة . اما باب الجامع فمن الجهة الغربية وهو يُعرَف بباب المزينين لهُ منظرٌ جميل تقرّ بمحاسنهِ العين وهو يتركّب من قنطرتين تستندان الى عمد كثيرة محكمة الصنعة يعلوها افريز مزيَّن بالنقوش كُتب عليهِ بحروف ذهبيَّة تاريخ بناء الجامع مع بعض ابيات حكميَّة وفقرات قرآنيَّة . وفي الاروقة الشمالية خزائن تُحفظ فيها كتب التدريس وادوات الكتابة

وموقع المسجد في الاروقة الشرقيَّة وهو في غاية الجمال فيهِ من طُرف النقوش وعجائب الهندسة ما يقصر عن وصفهِ لسان وعن تسطيره يراع . يبلغ عدد اعمدتهِ ٣٨٠ عموداً وكلها من الرخام او الصوّان محكمة النحت . وفيهِ من القناديل نحو ١٢٠٠ قنديل ولهُ محرابان مزيَّنان بالرسوم الدقيقة والنقوش الانيقة وغير ذلك من الزخارف ما يأخذ بالابصار ويفتن البصائر

٢ في تعليم الجامع الازهر

بعد ذكرنا في ما تقدَّم لمعةً من اخبار الجامع الازهر يترتب علينا ان نورد شيئاً من احوال تعليمهِ ونظام تدريسهِ فنقول:

قد مرَّ بنا في مطاوي كلامنا عن تاريخ الجامع الازهر ان اول ما انكبَّ عليهِ الازهريُّون من المعارف العلوم الدينيَّة كتفسير القرآن والسُّنة والحديث واصول الفقه ثم أُضيف الى هذه العلوم بعد سنين قليلة تعيساً للقائدة درس المبادئ واللغة والادب. والحق يُقال ان علم الدين كان ولم يزل محور تدريس شيوخ الازهر داروا عليهِ في كلّ عصر جميع فنونهم وبهِ نالوا ما لهم من بعد الشهرة وانتشار الصيت حتى بلغوا فيهِ شأواً لم يدركهُ غيرهم . وقد اشتهر منهم كثيرون في العلوم الفقهيَّة على حسب المذاهب الاربعة وصنَّفوا فيها الكتب العديدة التي نُشر كثير منها بالطبع

فممَّن اصاب قصبة السبق في الفقه المالكي الشيخ الزرقاني والشيخ يوسف الصفتي والشيخ ابو الحسن والشيخ احمد الدردير والشيخ الصاوي . ولكل هؤلاء القدم الراسخة في مذهبهم والمعوّل على تآليفهم الى هذا العهد في الجامع الازهر . ومن المتأخرين الشيخ العدويّ لهُ حواشٍ عديدة على مصنفات الاقدمين والشيخ العليش الذي لم يشقّ غبارهُ احد من الفقهاء المالكيين في القرن التاسع عشر فلقَّبهُ اهل مصر لسعة علمهِ بالمالك الصغير

ومن اعيان مذهب الامام الشافعي الشيخ ابو القاسم ولهُ شرح على متن ابي شجاع

العجمي والشيخ البرماويّ والشيخ الخطيب والبيجوري الشهير ولهؤلاء الثلثة حاشية (١ على شرح ابي القاسم . وشيخ الاسلام (٢ زكريّا الانصاري (٢٦٩ — ١٥٢٠ م +) الاديب المتضلع في الفقه صنّف فيه كتابين التحرير والمنهج ثم شرحهما بنفسه . والشيخ النووي (٦٧٦ — ١٢٧٧ + م) لهُ كتاب يُدعى ايضاً المنهج شرحهُ زكريا الانصاريّ . والشيخ مصطفى العروسي وابراهيم السقـاء والشيخ الرملي (١٠٠٤ — ١٥٩٦ م +) الطائر الشهرة الذي اجتمع فيه من المعارف ما أهّلهُ ان يدعى بالشافعي الصغير

امّا مذهب ابي حنيفة فاغلب كتبه صنّفها الاعاجم اشتهر من تباعه في الجامع الازهر الشيخ البنّاء والشيخ عبد الرحمان القطب والشيخ العباسي مفتي الديار المصريّة

هذا وتضرب صفحاً عن مذهب احمـد بن حنبل لان شيوخهُ قليلون وتبّاعهُ من الطلبة يبلغ عددهم خمسين طالباً (٣

ومن العلوم التي ازهرت في الجامع الازهر علم اللغة بفروعها . وقد اجمع اليوم علماء الاسلام انهُ لولا هذه المدرسة لما استمرّت العربيّة لغة الشريعة في الممالك الاسلاميّة . وذلك لأنّ الملك بعد الخلفاء العبّاسيين صار في الهنـد والعجم والعراق والشام ومصر الى دولٍ لم تكن العربيّة لغتها الرسميّة فكانت كلُّ دولة تسوس رعيتها بلغتها الخاصّة وبقيت العربيّة في بعض المدارس اشهرُها مدرسة الجامع الازهر فانّ منـار هذه اللغة لم يزل فيها عالياً نورها زاهياً . وكان ائمتهـا ممتازين بوفرة العلوم وفصاحة كلامهم ولهم التصانيف اللغويّة المفيـدة المتبنة بطول باعهم منهم الشيخ حسن الكفراويّ الشهير شارح متن الاجروميّة لابن آجرّوم والشيخ الحمدي لهُ تقرير على شرح الكفراويّ والشيخ خالد الطـائر الصيت صاحب الشرح المعروف بالتصريح على متن التوضيح لابن هشام

---

١) الحاشية ما ينسجهُ المؤلف من التفاسير على ما كتبهُ الشارح ليوضح المبهم ويفصّل المجمل وربّما اتى وراءهم وألحق ملاحظاته بالشرح والحاشيـة ويسمى ذلك تقريراً . فيكون للتأليف الواحد المتن والشرح والحاشية والتقرير . وكلٌّ منها عادةً اطول من المتقدّم

٢) كذا يسمّى الشيخ المتولي ادارة الجامع الازهر ويقال لهُ ايضاً شيخ الجامع

٣) كان عدد الشيوخ المدرسين في الازهر قبـل بضع سنوات نحو ٣٢٠ شيخاً نصفهم من المذهب الشافعي . والباقون مالكيون وحنفيون الا ٦ و ٥ من الحنبليين امّا الطلبة المجاورون فكان عددهم نيّفاً و ١٠٠٠٠ النصف منهم شافعيون . والمالكيون نحو ٤٠٠٠ والباقون حنفيّون مع قليل من الحنبليين . واليوم زاد عدد الحنفيين على الشافعيين والمالكيين كما سترى

والشيخ ابو النجا محشي شرح الشيخ خالد. والشيخ السجاعي الذائع الذكر مصنف حاشية على شرح القطر لابن هشام وحاشية على شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك. ومنهم الشيخ الخضري احد ادباء الازهر لهُ حاشية على شرح ابن عقيل كالسجاعي. والشيخ الأشموني شارح متن الالفية وعلى شرحهِ حاشية للشيخ الصبان (١. والشيخ شمس الدين الانبابي الذي قلد رتبة شيخ الجامع وتوفي سنة ١٨٩٥. وكان هذا الرجل فريد المناقب غزير العلوم لهُ على معظم كتب المعقول جملة تقارير تبرى العليل وتشفي الغليل واما تصانيفهُ الفقهية في مذهب الامام الشافعي فما غادر فيها كبيرة ولا صغيرة الا واماط عنها الحجاب

ولم يبلغ علماء الازهر في البلاغة ما بلغوا في الدروس اللغوية فان اكثر كتب البيان والبديع المقررة اليوم في الجامع الازهر للاعاجم. وقد اشتهر مع ذلك منهم قوم فضلاء كالشيخ جلال الدين السيوطي صاحب كتاب عقود الجمان مع شرح لهُ عليهِ والشيخ البناني والشيخ الدسوقي ولكل منهما حاشية على شرح السعد العجمي. والشيخ الأخضري صاحب الجوهر المكنون وهو شارحهُ. والشيخ مخلوف من ادباء زماننا محشي شرح الاخضري والشيخ محمود مؤلف حسن الصنيع والشيخ البسيوني وكان امام سمو الخديوي عباس باشا الثاني ولهُ كتاب حسن الصياغة في علوم البلاغة

ومن الازهريين من برع في الفلسفة ولاسيما في المنطق وقد صنفوا ايضاً في ذلك تآليف حسنة منهم الشيخ الخبيصي شارح متن التهذيب والشيخ الاخضري السابق ذكرهُ صاحب السلم وهو الذي شرحهُ والعلامة الشيخ البيجوري محشي تصنيف الاخضري

وقد انكبَّ ايضاً بعض علماء الازهر على الهيئة والرياضيات والطب فادركوا في كل ذلك شأواً بعيداً على عهد الخلفاء والمماليك بيد اننا لا نظن ان هذه الفنون رُزقت بينهم عمراً طويلاً لان اكثر آثارها قد اندثرت ولم يبقَ منها شيء يُذكر

هذه هي العلوم التي ازهرت في حديقة الجامع الازهر فانبعت اثمارها واجتناها الطلاب في تداول الاحقاب على حسب ما بذلوهُ من الهمة واصابوا من ذكاء الالباب

---

١) تاريخ وفاة بعض هؤلاء النحاة توفي ابن مالك سنة ٦٧٢—١٢٧٣م وابن هشام سنة ٧٦١—١٣٦٠ وابن عقيل ٧٦٩—١٣٦٨ والاشموني ٩٠٠—١٤٩٥ والشيخ خالد الازهري ٩٠٥—١٥٠٠ والسجاعي ١١٩٧—١٧٨٣ والكفراوي ١٢٠٢—١٧٨٨ والصبان ١٢٠٦—١٧٩١ والخضري ١٢٨٨—١٨٧١

وان سألنا القارئ عن لائحة الدروس الحالية في الجامع الازهر سرنا به الى هذه المدرسة الشهيرة لتتفحص عياناً عن احوالها وطرائق تدريسها كما هي جارية في يومنا هذا. فادخل يا رعاك الله الى هذا نادي العلوم فاذا تجاوزتَ بابه وافضى بك السير الى صحنه شاهدتَ جمًّا غفيرًا من اولاد وشبان وكهول وشيوخ ينيف عددهم على عشرة آلاف مجاور لهذا المقام الخطير فتسمع جلبةً عظيمةً واذا اصغيتَ الى لهجاتهم تبينتَ منها اصولهم فمنهم المصريون والشاميون والعراقيون واليمنيون وقد قدم بعضهم من الصعيد والنوبة والسودان وطرابلس الغرب والجزائر ومراكش ولعلك تسمع ألسنة غير اللسان العربي كالفارسية والتركية والهندية الى غير ذلك من اللغات التي يتكلم بها المسلمون في انحاء المعمور. واغلب هؤلاء الطلبة يدرسون الفقه الحنفي والسبب في ذلك رغبتهم في مراتب المحاكمات الشرعية فانهُ لا يُنصَّب في مجالس الإفتاء والقضاء الّا من كان حنفيًا وكانت الاغلبية سابقًا للشافعيين. فاضحى اليوم عدد المتذهبين بمذهب ابن مالك والامام الشافعي متساويًا بالتقريب. امّا المذهب الحنبلي فتابعوهُ قليلون كما مرَّ

وجميع هؤلاء الطلبة متفرقون حسب اجناسهم فلكل جنس رواق مخصوص لهُ شيخ يتولى شؤونهُ تحت ادارة شيخ الجامع الاكبر

امّا اذا حان وقت الدرس فيتخالط اجناس الطلبة وانما يتقاسمون في درجات العلم فتراهم يجلسون على الحصير زُمرًا زُمرًا محدقين بمعلّمهم كالهالة بالقمر لا يزالون يتمايلون الى الامام والوراء او الشمال واليمين وهم مصغون الى اقوال المدرّس حتى تتطبع في عقلهم. ولا يكترث الشيخ المدرس لعدد السامعين ان كثروا او قلّوا قدموا او انصرفوا تعلّموا او لم يتعلّموا استمعوا لهُ او لغيرهِ من الشيوخ فانهُ لا حكم لهُ في كل ذلك وانما يترتب عليهِ التدريس في ساعات معلومة ليس الّا. ولا ينقطع التعليم في الازهر في كل أيام الاسبوع ما خلا مساء الخميس ونهار الجمعة برمّتهِ. وكذلك يبطل التدريس في شهر رمضان ومدة نحو شهرين في فصل الصيف

ومن امتيازات الطلبة انهم يُعافون من الجندية وقد اقرّت لهم الحكومة بذلك لتوفير عدد الداوسين وتنشيط همهم في اكتساب العلوم. والتعليم لا يكون الّا مجانًا

يقوم بنفقات المعلمين ما يُجمع من الاوقاف التي حُبست على هذا الجامع الشهير منذ عهدٍ عهيد

اما العلوم التي يتخرَّج فيها الطلبة فانها لا تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في القرون الغابرة. فان اول ما يعكف عليه الطالب درس اللغة العربيَّة من صرف ونحو ثمَّ يباشر البلاغة والبيان وهو ينكبُّ في اثناء ذلك على علم الدين. ويشتمل علم الدين عندهم على التوحيد اي البحث عن وجوده وصفاته تعالى وعلى الفقه وتفسير القرآن وتفسير الحديث وهو الكلام المنقول عن صاحب الشريعة

والفقه عندهم قسمان نظري اي معاملة وعمليّ اي عبادة. فالعبادة مدارها على الصلاة والزكاة والصوم والحج. اما المعاملة فالبحث فيها عن الهيئة الاجتماعيَّة في الاسلام كقوانين البيع والشراء والعتق والنكاح والطلاق الى غير ذلك مما يطول شرحهُ

ويضاف الى هذه العلوم الدينيَّة شرح مبادئ المنطق على حسب ما عُرِّبت عن كتب ارسطاطاليس. اما علم الهيئة فلا يتلقَّون منهُ الَّا شطراً يسيراً وهم لا يبلغون في ذلك ما يبلغهُ اسلافهم فضلاً عن انهم لم يقفوا على ما اخترعهُ اهل العلم في هذا الشأن منذ مئتي سنة الى يومنا

هذا ومن نحو ستّ سنين اتَّسع نطاق دروس الجامع الازهر وازدادت كنوزهُ العلميَّة فأُلحق بعلومهِ درس الحساب والتاريخ والجغرافيا لكنَّ الطلبة لم يجاوزوا في ذلك مبادئ هذه الفنون ولم يرتشفوا من سلافتها الَّا صبابة

وان سألنا السائل عن حالة الدروس اليوم في الجامع الازهر وما كانت عليه في سالف الدهور اجبنا استناداً الى قول بعض الشيوخ الذين اجتمعنا بهم فتفاوضناهم في ذلك انَّ بين الحاضر والغابر بوناً شاسعاً قال الشيخ: « والسبب في انحطاط الدروس تغافل الطلبة عن اكتساب العلم فانهُ قد هبَّت منذ بضع سنوات ريحٌ تدفعهم عن سُبل العلم الصحيح الى ما فيهِ تنعُّم الانسان. ومنهم من يتَّخذ العلم ذريعة الى احراز المناصب السامية واقتناء الاموال فلم يبقَ عندهم من القرار والسكون وراحة الفكر ما يحملهم على طلب المعارف والترقي الى الذروة كمال العقل »

انتهى قول الشيخ. ونضيف نحن سبباً آخر الى ما تقدَّم فنقول: انَّ الديار المصريَّة صارت منذ عهد قريب محطَّ العلوم وموطن الاداب والفنون لاسيما المحروسة فان العلوم

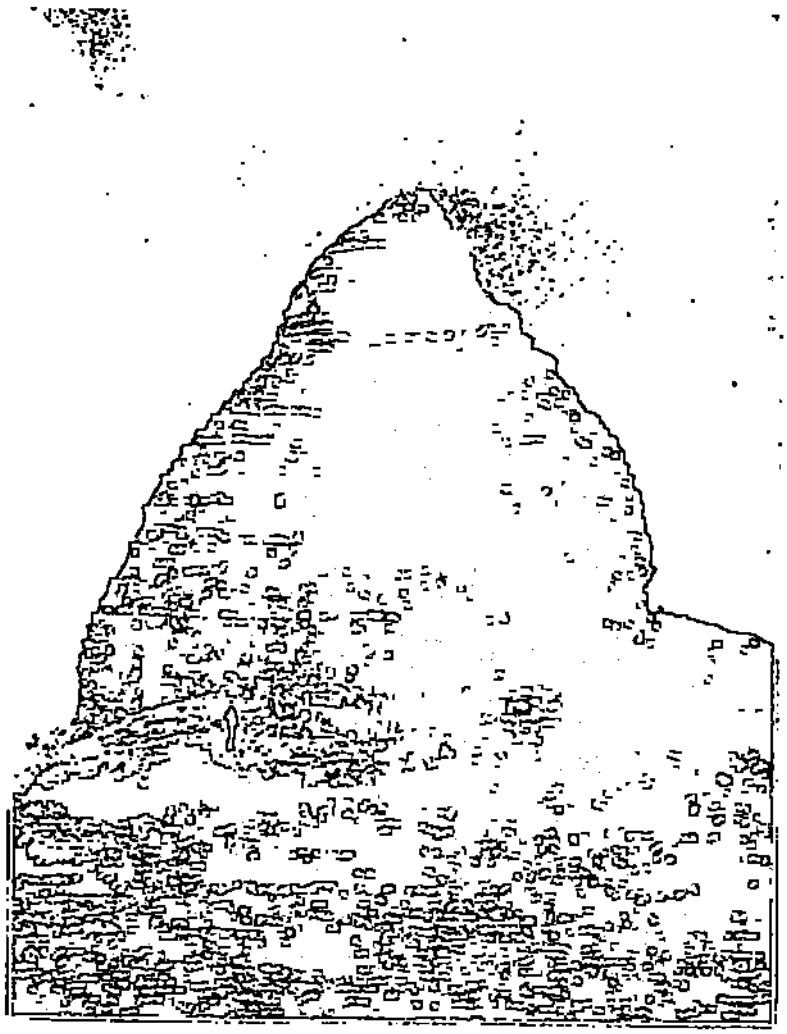

عقرقوف الحالية

الطبيعيَّة والاختراعات الحديثة والصناعات الجديدة ووسائل النقل والمواصلة بلغت فيها ما لا تراهُ الَّا في العواصم العظمى. ولذلك عمدت الحكومة المصريَّة السنيَّة الى ادراج العلوم الطبيعيَّة في سلك موادّ التدريس المقرَّرة في مدارسها. امَّا الجامع الازهر فلم يغيِّر خطَّتهُ وأبى الشيوخ إحداث شيء في طريقته التعليميَّة فاصبح الخارجون منهُ مقصرين عن القيام بمهنة التدريس في مدارس الحكومة لقلة علمهم بالموادّ المشروحة فيها. وتداركاً لهذا الخلل اقامت الحكومة مدرسة عليا للشيوخ الازهريين سمَّتها دار العلوم. وهاك ملخَّص اخبارها:

أسست هذه المدرسة سنة ١٨٧٢ بامر صاحب السموّ جنتمكان اسماعيل باشا وشرع في التدريس فيها سنة ١٨٧٣ وغرضها ترشيح مدرسين يقومون بوظيفة التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائيَّة في جميع العلوم المقرَّرة لها ما عدا اللغة التركية واللغات الاجنبيَّة والرسم. وفي سنة ١٨٨٨ رأت الحكومة السنية ان تزيد على هذا الغرض إعداد بعض طلبة لوظائف القضاء والافتاء. وصدر في ذلك قرار نظارة المعارف العمومية في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٩٣ وهاك نصّ المادتين ٨١ و ٣٠:

(المادة ٢٨) مدَّة التعليم للطلبة الذين يترشحون لوظائف التدريس اربع سنوات وللذين يترشحون لوظائف القضاء والافتاء خمس سنوات

(المادة ٣٠) تعطي النظارة لكل طالب اتمَّ دراسة الاربع السنوات شهادة انتهائية بكفاءته للتدريس ولمن اتمّ دراسة الخمس السنوات شهادة اخرى بانهُ ترشَّح لوظائف القضاء والافتاء وذلك بعد تأدية الامتحان السنوي

ولمَّا أُريد تطبيق هذا القرار لم يرغب الدخول في السنة الخامسة من الطلبة الذين تمموا دروسهم سنة ١٨٩٣ واستحقوا شهادة الكفاءة للتدريس الَّا اثنان فقط. ومع حصولهما على شهادة ترشحهما لوظائف القضاء والافتاء لم تقبل نظارة الحقانيَّة جواز استخدامهما الَّا بعد امتحانهما مع من اراد من طلبة الازهر الحصول على الوظائف نفسها. وحجَّة الحقانيَّة في ذلك هي « انهُ ليس للألوف المؤلفة من الطلبة الذين يؤمّون الجامع الازهر من اوجه الكسب سوى توظفهم في تلك الوظائف فضلًا عن ان جملة وظائف القضاء والإفتاء في الديار المصريَّة هي ١٤٧ وظيفة بخلاف وظائف مدرسي اللغة العربيَّة وما يدرس بها بالمدارس الاميرية وغيرها من المدارس المنتظمة فانها تبلغ ١٧٠٠ وظيفة حسب احصائية التعليم سنة ١٨٩٣ فمع اتساع

الطريق في اوجه المتخرجين من هذه المدرسة لا يكون من المناسب مزاحمتهم لانوف ليس لهم الّا تلك الطريق الضيقة خصوصاً وقد عُرفوا بايجاد المدرسة من وظائف التدريس بتلك المدارس »

فكان ما ذُكر باعثاً على عدم رغبة احد من الطلبة الحاصلين في امتحان سنة ١٨٩٤ على شهادة الكفاءة للتدريس في الدخول بالسنة الخامسة . والمدرسة الان خالية من هذه السنة ويقتصر الطلبة على وظائف التدريس كما هو الغرض الاصلي من المدرسة . ولكي ينطبق اسم المدرسة على الغرض المطلوب منها وعلى رغبة طلبتها تمام الانطباق سُنيت بقسم المعلمين العربي . وكان عدد الطلبة في سنة ١٨٩٩ ٥٠ طالباً وفي سنة ١٩٠٠ ٦٠ طالباً . ومواد التدريس كما يأتي : تفسير القرآن والفقه والعلوم الادبية والتاريخ العام والجغرافيا والحساب والهندسة والكيميا والطبيعة والثلث والنسخي والرقعة

وتحققت في هذه المدرسة آمال منشئها وظهرت بالاعمال منافعها الكثيرة فيما ابدى المتخرجون منها من سعة المعارف المختلفة ومن البراعة في تلقين الطلبة لا في مدارس الحكومة فقط بل في غيرها ولا يزال عدة منهم قائمين فيها بوظيفة التدريس احسن قيام

وفي الختام نتمنى لمدرسة الجامع الازهر ألّا تقتصر كما في السابق على التعاليم المذهبية ومبادئ المعارف البشرية بل تُضحي كالكليات المنشأة في أمهات المدن الاوربية منهلاً يستقي منهُ الطلبة الشرقيون ما احبُّوا من العلوم التي تنير العقول وتساعد المرء على ادراك غايته القصوى ومعرفته تعالى وهو خير المنيرين

سلحفاة بيروت البحرية

للاستاذ بطرس غيغ مدرس الصيدلية في مكتبنا الطبي

كتب السيو غيغ هذه النبذة في مجلة « الطبيعة » الفرنسوية (في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٠٠) ثم قدمها لمجلة المشرق وزاد عليها بعض الافادات

كنتُ وقفتُ على مقالة حسنة حرَّرها في مجلة الطبيعة العلامة دي كلاف (de Clèves) عن قوة الحياة وثباتها في بعض الحيوانات فأيدني قولهُ في صحة ما لحظتهُ من قوة الحياة في السلحفاة . ودونك الخبر

كنتُ اوصيت احد الصيادين ان يصطاد لي عند سنوح الفرصة سلحفاة بحرية (١

(١) وهي المعروفة بلسان العلماء بمنم خيلونية (Cheloniadæ)